حول الأوزاعي «ثالثا»

للأستاذ أمين الخولي

. . . ولا مفر لي من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها ؛ ثم سلام على الأخ السيد السنغافوري ، وانتصاح خير انتصاح بنصيحته في أن أعدل منطقي ؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء ؛ ولعله يعمل معي على هذا الاصلاح الرشيد الذي أبادر بشكره عليه ، فيدعني أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء ، وله أن يبعث إلى هذا الاصلاح بأي طريق يؤثره . وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الاصلاح اهتمام فليجعله — إن كان ذلك — بيننا خاصاً

يا سيدي ؛ قصرت في حديث عن الأوزاعي التأثر الروماني ، بالتأثر بالثقافة والبيئة التي لا بد من تقديره ؛ فكتبت تقول لي إن القانون الروماني الحديث مأخوذ من الفقه الاسلامي ؛ وإذ ذاك قلت لك هذا رأي قديم نشر في مصر ولا يؤثر في قولي ؛ فقلت لي إني أكتب ذلك للقراء ، لا لك وحدك . والذي نشر في الكتب المطبوعة منذ ربع قرن ؟ أليس هو للقراء ؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع ما في الكتب ؟ أم أين منطقي . . . وأقول لك لا يؤثر على قولي ولا يتصل به من قرب ، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيي مدعماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظري ؛ ولكن لم أكن مناظرك في هذا ، ولا عرضت له ؛ وعنونت كلمتي الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة ، حول الأوزاعي ؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه ؛ وستعرف آخر الأمر لماذا فعلت ذلك ؛ فالآن أين منطقي . . وأقول لك وقتي — وقتي أنا — وعملي وواجبي ومصالحي ، فتقول لي لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض في هذا البحث وحده ، فربك أين منطقي ؟ . . . وأقول لك حين تسوي بين الأخذ والتأثر أنهما متغايران والثاني منهما قد يكون حاداً قوياً ، وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة ، فلا يعجبك ذلك . وتحدثني عن سد الذرائع ، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية ، ولما نفرغ من المناظرة في تاريخ القانون ، التي تجبرني عليها ، حين تزعم أن أصل البحث الذي نحن فيه أنه وجد في الفقه الروماني تشابه مع الفقه الاسلامي فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، وعلم الله أني أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذي تحب أن تتكلم فيه ، فتجبرني على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك ، فأين منطقي . . . ؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الاسلام تمام الانطباق ، فتقول لي إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لي بينهما ، وفي منطقي — المريض — أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق ، فما التفريق بين الناقض والخارق ؟ وأين منطقي . . .

وتقول إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة وفي زمن واحد . فأقول لك عت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلف فيها اختلاف هائل ؛ فتقول لي إنما أريد الأصول والحدود والفرائض ؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها ، والتطبيق عليها ؛ وأين منطقي . . .

وأقول لك إن بعد المرامي القرآنية سبب للاختلاف ، فتحتج في الرد على هذا بأمر علي لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا في فهم القرآن وتأويله ، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف ، فأين منطقي . . .

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف ، فتقول السبب الأكبر هو كذا ، وهذا عندي هو السبب الأكبر ، وهل وجود السبب الأكبر — عندك — ينفي السبب ، أو الأسباب الكبيرة ، والصغيرة و و . . . ، وأين منطقي

وأقول لك اختلف الأذكياء في فهم معنى الكذب في القرآن واستعماله فيه ، فتقول لي فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية ، وهل ليست مؤدياتها هذه هي معانيها وما يفهم منها ، وهل ليس هذا هو ما يحد ويقدر حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم ؛ والا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التي تختلف عند السيد . . . وأين منطقي . . . ؟ إن منطقي لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع يفهمها المسلم اليوم بمثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة

دون خلاف ، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال ، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها ، وهذا معنى قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله ، لا بغير ذلك من المعانى ؛ ثم منطق هذا لم يفهم الكلام فى التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول قبل مائتى سنة ، لأنا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية ، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مرامیها أو وقوع المشترك فيها ، لا لبعد المرمى الدقيق الاعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فلا أفهم ذلك ، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب ، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهى أمر احصائى ؟ ثم كيف غلبت وهى تابعة لأصل هو الكتاب لا تجيء بما ليس فيه ، فكل ما فيها فيه ، فما هذه الأغلبية ، وأين منطق . . . أصلح الله شأنى وأصلح شأنك إن قبلت منى هذه الدعوة فى غير غضب ، وإلا فدع نصيبك منها لى كله

وأقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ؛ فتقول لى قد مضى على الرومان قرن وأكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان ؛ ورحم الله منطق مع هذا التراث ، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً ، وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والنرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ؛ والنارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطق أنا . . .

وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى إكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التى لا تتبدل

وقلت : « الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا » فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الاسلام لا يصح أن يجرى فيه الخلاف إذن ، فعجبت من ذلك ، وسألتنى بأى منطق استنتجت من قولك ذلك ، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الاصلاح وقع هذا الكلام فى عبارتك ففهمته ، ثم كنت ذكرت ياسيدى فى هذا المجال أول ما ذكرت : الضلال والزيغ ومحاربة الاسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك ؛ وأما الآن فأقول لك : إن هذا الكلام الذى كنت ذكرته عن عجبك من وزارة الأوقاف الاسلامية كيف تقول كذا وكذا فى الفقه ، ومنى كيف أقرر هذه الضلالة وأفسرها ؛ هذا الكلام كله هو الذى يجعلنى أفهم — ولو لم تقل — أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره ؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن ، وواجب النصح ، ولو غضب أو قذف : أولى لى — أنا أولاً — ثم لحضرتك ثانياً ، أن تدع المناقشة فى تاريخ القانون الرومانى لدراسة يحق لها أن تتكلم فى هذا أو ترتئى فيه ؛ لا لقال ينشر فى سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره فى مصر ؛ وهو كل بضاعتنا وما تدور عليه مناقشتنا . والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً ، وندرس تاريخه درساً عميقاً ؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم ؛ ثم نلتقى بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة ، ونتعاون على الوصول إليها ، لا لنكفر كل قائل ، وتتهم كل متكلم ، ونتحدث عن الرومان والاسلام واليونان والعرب والفرنجة والمستشرقين والمبشرين فى صفحة وبقطرة مداد واحدة . تلك نصيحتى إليك ياسيدى أكررها جزاء لك على خالص نصحك لى بأن أغير منطق ؛ وإنى لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطق أنا ، لكنما المنطق وحدة عقلية إنسانية لا يد لى فيها ولا يد لك بتغييرها . فنبهنى أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الانسانية ، ولا تخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فتنعزل عن الدنيا ؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع . وهذا الذى بينت هو الذى منعنى من الخوض معك فى مناقشة العلاقة بين القانونين — الرومانى والاسلامى — وهو الذى تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت

وإذا كنت — وحق للمنطق وكرامة العقل — لم أغالطك مطلقاً ، فانى وحرمة الاخوة الاسلامية لم يدر بخلدى أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك ، والحق أجل منى ومنك . والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولى